من قصص التاريخ

فنشنزو فيفياني

مترجمة عن كتاب "الاطفال الممتازون"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

قد كتب الدهر من وقائعه
أجل مجموعة من السير
يذهب مألوفها وتافهها
في زبد للحياة مندثر
ويخلد النادر الغريب من الـ
ـواقع لا المزدرى من الخبر
إن زال حب الغريب من وسط
فليس فيه مجال مبتكر
غرابة في الجمال ندرته
أبقته في نادر من الصور
كانت حياة وكان صاحبها
لم يبق غير الغريب في الصور
ماضٍ من العمر أنت صاحبه
ماذا تعي من حوادث العمر
أروعها مظهراً وأحفلها
بكل ما كان غير منتظر
والشر كالخير رائع الخبر
فالشر في الخير بين الأثر
والشر والخير في اجتماعهما — خوف جزوع وزهد منتصر
قصة نيرون إن تكن رُويت — فظلم نيرون غير محتقر
أحقر ما توصف النفوس به — صبر قنوع وقنع مصطبر

(المترجم)

في يوم من أيام سنة ١٦٣٨ دخل مدينة فلورنسا، وهي إذ ذاك عاصمة دوقية توسكانيا، صبي في الثانية عشرة من العمر يحمل على ظهره صرة معلقة في عصاً موضوعة على كتفه وكان في جيب هذا الصبي عدد قليل من الدراهم.

قال ابو هذا الصبي مخاطباً إياه قبل مجيئه إلى فلورنسا: «لقد كبرت يابني وأصبح في وسعك أن تعول نفسك، ولم يعد في وسعي أن أعولك. ولست أزودك بأغلى من نصيحتي إياك بتقوى الله؛ فإن اتبعت هذه النصيحة لم تفتقد في أي وقت من الأوقات من يمد إليك يد المعونة»

قال الأب ذلك وبكى ونفح ابنه بدريهمات هي التي كانت معه حين دخل عاصمة الدوقية، وقد حرص الصبي على الاقتصاد فوضع حذاءه في الصرة التي حملها على عصاه ومشى حافياً، ولما وصل إلى شاطئ الأرنو استحم في مائه وجلس يرفأ ثيابه عند الشاطئ ثم غسلها وأستأنف السير

ولم يكن فيفياني قد تعلم حرفة ما، بل لم يكن لديه أي استعداد لتعلم أية حرفة. ولقد كان يحسن القراءة والكتابة ويعرف الحساب إلى حد ما؛ وكان يعرف اللغة العبرية وهي التي كان الكتاب

المقدس يقرأ بها فى ذلك العهد فى إيطاليا قبل ترجمته إلى اللغة الإيطالية

وكان قسيس القرية قد ترجم لفيفيانى مزموراً واحداً من مزامير داود فاستحثه ذلك على أن يترجم كل المزامير إلى لغته

كان هذا كل استعداده ، وهو يبحث عن عمل فى فلورنسا ، فطاف بالحوانيت لينظر هل من حرفة يستطيع احترافها فلم يجد ما يلائمه . ولكنه وجد فى أحد الحوانيت ما استثار دهشته — وجد فانوساً سحرياً ، فدخل فى الحانوت لا لكى يطلب عملاً ولكن ليطلب إلى صاحبه أن يرشده إلى كيفية صنع هذا الفانوس

وكانت المصابيح السحرية نادرة فى ذلك الحين . وقد كان الرجل ظريفاً ، فلم يأب أن يفهمه سر هذا المصباح . وقد راع الطفل أنه يستطيع أن يعيش بالطواف بين القرى والمدن ومعه الفانوس السحرى يعرضه بالأجر التافه على الأطفال

وعد مامعه من النقود وسأل صاحب الحانوت : أليس يكفى هذا القدر من المال ثمناً للفانوس ؛ فأجابه : « لا . ولن تستطيع شراء مثله بعشرة أضعاف هذا الثمن . ولكن لماذا تريده ؟ »

فلما قص عليه الصبى قصته قال : إننى لن أبيعك هذا الفانوس ، ولكنى أؤجره لك لما يبدو لى من أنك شريف . فهل تعدنى بالشرف أن تمر علىّ فى كل أسبوع مرة وتخبرنى بالحقيقة كم ربحت . ولك علىّ ألا أطالبك بالأجر إلا بنسبة ربحك ؟ »

قبل الصبى وأخذ المصباح فصار يعرض على الأطفال لأول مرة ما يشبه النوع المعروف فى مصر باسم « صندوق الدنيا » وإن كان أدق صنعاً منه ، فنال فيفيانى مبلغاً وافراً من المال

وفى يوم مطير هرب الأطفال من المطر إلى البيوت ؛ وكان فيفيانى واقفاً ومعه فانوسه السحرى ؛ وفى الناحية الأخرى من الطريق رجل مختبئ تحت شرفة لكثرة المطر ، فقال له فيفيانى : « أيها السيد إذا لم تأت لتشاهد فانوسى السحرى فإنى لن استطيع العشاء هذه الليلة »

وكان هذا الرجل هو جاليليو العظيم أكبر عالم فى جيله ، فأخذته الرأفة ووقف يشاهد صندوق الدنيا إرضاء للصبى المسكين . ثم أخذ يسأله عن قصته فرواها له : وقد اهتم جاليليو بقصته أيما اهتمام فقاده إلى منزله وتبناه وعلمه فأصبح فيفيانى من أكبر العلماء فى القرن السابع عشر

وذاعت شهرة فيفيانى بعد نضوجه فأدر عليه المال أمراء بيت مديسى ، ومنحه لويس الرابع عشر معاشاً ضخما ، وضمه المجمع العلمى الفرنسى إلى عضويته . وكان من بين أصدقاء فيفياني فردريك الثاني غراندوق توسكانيا ، وقد استعان به فى علاقاته الدولية عدة مرات ، كان يرسله فيها سفيراً إلى ملوك أوربا

ومات فيفيانى فى الثانية والثمانين ، بعد أن ألف عدة كتب في الهندسة

« عن الانكليزية من كتاب الأطفال الممتازين »

عبد اللطيف النشار